تكامل الإنسان فى القرآن

إن غاية الإسلام هى السلام . فأحكامه من أوامر ونواه ، وقواعده من أصول وفروع ، ومنهاجه من تربية وتنشئة ، تنتهى جميعاً إلى تحقيق سلام الإنسان : سلام الإنسان مع نفسه ، ثم عائلته : جماعته الصغيرة ، وموطنه : جماعته الأوسع نطاقاً ، فالإنسانية قاطبة : جماعته الكبرى ، وأخيراً مع الكون الفسيح ، الذى يعيش فيه ، ويتأثر به .

فالقرآن (يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام) ، (والله يدعو إلى دار السلام) ، والمسلمون المؤمنون (لهم دار السلام عند ربهم) ، وهم عند دخولهم الجنة تحييهم الملائكة (وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم) ، وهم فيها (لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاما) ، والله جل وعلا (هو الملك القدوس السلام) .

وليس السلام بالمطلب الهين ، فبواعث القلق والخوف والضيق ، ودواعى التردد والارتياب والشك ، تصاحب الإنسان منذ يولد حتى يوسد التراب . فهو بعجزه أمام الكون المترامى غير المتناهى ، وجهله سر ظواهره الواضحة دع ، عنك الخفية ، وحيرته أمام آفاقه الفسيحة غير المحدودة وقوانينه الدقيقة غير المفهومة ، وفزعه لما يقع فيه من تطورات تسبب له الكوارث المهلكة من زلازل وبراكين ، وسيول وأعاصير ، وتقلبات جوية تدمر زرعه حيناً وتبيد نسله حيناً ، أصبح الخوف هو القانون المسيطر على حياة الإنسان . ومن ثم بذل الإنسان الأول أكبر جهده ، وصرف معظم وقته لتأمين نفسه ، من عوادى الطبيعة وعوادى الحيوان ، بل عوادى الإنسان نفسه ، وأصبح يعرف أن تحصيل رزقه ، وتوفير قوته ، وتهيئة مسكنه والاستئثار بأنثى أو إناث ، لا تهيئ كلها له السعادة التى ينشدها ، لأن خوفه المستمر من خطر حقيقى أو متوهم ،

حال أو متوقع ، يعكر صفوه ، وينغّص عنه لذة الطعام ، ويبدد له راحة البال .

ولذلك كانت قاعدة الإسلام التى يقوم عليها كل بنائه هى السلام . فإله المسلمين هو السلام ودار المسلمين هى دار السلام ، وتحية المسلمين فى الدنيا هى السلام ، وتحيتهم فى الآخرة هى السلام (خالدين فيها بإذن ربهم ، تحيتهم فيها سلام) ، (ويلقون فيها تحية وسلاما) ، والجنة هى سلام دائم (لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيما إلا قيلا سلاماً سلاماً) .

فكيف يحقق الإسلام للمسلمين السلام ؟ إن الإسلام يقيم صرحه الشامخ بأحكام وأنظمة على العقيدة ، فالعقيدة هى مستودع قوة الإنسان وسر أسرار الوجود الإنسانى بأسره ، منها البداية وإليها النهاية ، فإذا كانت عقيدة الإنسان مفضية إلى تفتيت النفس الإنسانية وإحالتها إلى ميدان صراع بين قوتين من قواه ، تتجاذبه يميناً ويساراً ، سدت سبل السلام فى وجه الإنسان . أما إذا كانت عقيدة الإنسان تخلق منه وحدة متآلفة متسقة ، فقد أصبحت قوة لا ترد ، تتضاءل أمامها مفزعات الكون ، وتتبدد ظلمات الوجود .

وأولى مشكلات الإنسان التى حيرته وأرهقته وبددت قواه العقلية والروحية ، هى مشكلة الخير والشر فى الوجود . وقد تباينت مواقف المذاهب الإنسانية من هذه المشكلة . فعقائد ترى أن القوى المسيطرة على هذا الكون هى قوى الشر ، وأن الخير عاجز أمامها لا قبل له بمواجهتها فضلا عن التغلب عليها ، فلا سبيل له إلا الاستسلام لها ، أو ترضيتها ما استطاع ، فإن استخلص من براثنها شيئاً فإلى حين ، إذ لاتلبث أن تستعبده وتلتهمه ، لأن قانون هذا الوجود هو الفناء لا البقاء ، والفساد لا الصلاح ، والعنف لا الرحمة ، والخوف لا المحبة — وبالجملة كل شىء باطل .

وعقيدة ترى أن الوجود معركة ، هى حرب سجال بين الشر والخير ، يكسب هذا حيناً ، ويخسر حيناً ، وهى معركة لا تنتهى ، ولا تحقق شيئاً ، فما يبنى يهدم ، وما يهدم يبنى ، وما يزول يعود للظهور ، وما

يظهر يختفى من جديد ؛ وهكذا دواليك ، وعلى الإنسان أن يقاوم ، فهذا قدره ، وإن كانت مقاومته عبثًا ؛ فهى من قبيل ما كتب على « سيزيف » فى أساطير اليونان ، يصعد بالكرة إلى أعلى الجبل . ولكنها لاتلبث أن تتدحرج إلى سفحه ، فيعدو إليها ليعود بها من جديد إلى القمة فتفلت منه إلى السفح من جديد .

وعقيدة ثالثة ترى الخير والشر عنصرين متكاملين كأنهما الليل والنهار ، أو الشهيق والزفير ، لاتكمل الحياة بدونهما ، فالخير ينقضه الشر ، ليأتى خير أكمل ، لينقض من جديد . ولا معنى للحياة إلا بنقض أحدهما الآخر ، وتعاقبهما ، لتكون حياة أكمل .

أما الإسلام فينظر إلى نفس الإنسان ، كما سبق القول ، على أنها مستودع قوى الكون الذى يعيش فيه الإنسان فهى أقوى من الوجود المادى ببحاره وأنهاره وأمواجه وأبراجه وزلازله وبراكينه وسيوله وأعاصيره ، فالمؤمن الذى يطيع ربه يكون ربانيًا ، يقول للشىء كن فيكون ، والنفس الإنسانية تذكر فى القرآن قرينًا لآفاق الكون فى أكثر من موضع : (وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون)[1] ، (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم) وآخر الأمر أن التغيير يدعه الله للنفس الإنسانية : (إن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) .

ومن هنا ليس هناك شر محض ، ولا خير محض ، بل لعله لا شر قط ولا خير قط ، وإنما هناك نفس صالحة مؤمنة ونفس ضالة كافرة . ومن هنا أيضًا يغفر الله الذنوب جميعًا إلا أن يشرك به ، (إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) ذلك لأن الشرك بالله هو قفل نوافذ النفس الإنسانية فى وجه الكون كله ، فالشرك هو الجهل فى أقبح صوره ، لأنه يسد الطريق فى وجه الفضائل الإنسانية الأولى : العدل ، والصدق ، والإخاء ، والمساواة .

---

(١) سورة الذاريات ٢٠ ، ٢١ .

وبعد ذلك يتدرج الإنسان فى مدارج القوة والسعادة ، بمقدار نصيبه من العقيدة الصالحة ، فيستحيل الكون خيراً وتزول الشرور ، وتصبح ظواهر الكون العظيم آيات الله للإنسان ، عليه أن يتدبرها ، وينتفع منها ، لا على اعتبار أنها كوارث صادرة عن كون أعمى ، يخبط بغير نظام .

قال الله تعالى : (وعسى أن تكرهوا شيئًا ، وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئًا وهو شر لكم) (١) .

فما يكرهه الإنسان ويحسب فيه أذاه قد يكون خيراً له ، ينفعه أو يقويه ، أو يرد عنه أذى لا يعلمه ولا يدريه ؛ وما يحبه الإنسان ، ويحرص عليه ويتشبث به ، قد يرديه أو يشقيه ، أو يهيئ له ضراً لا يخطر له على بال .

وفى موضع آخر من القرآن ، هو الآية التاسعة عشرة من سورة النساء ، يبدو هذا المعنى أكثر جلاء ووضوحاً :

(فعسى أن تكرهوا شيئاً ، ويجعل الله فيه خيراً كثيراً) .

فهذه الآية الكريمة زادت وضوحاً مقدار ما قد يقع فيه الإنسان من خطأ فى تقدير الشرور والخيرات ، فهو لا يكره شيئاً ينفعه فقط بل يحرم نفسه من شىء فيه خير كثير له .

فالخير والشر إذن أمران مردهما تقدير الإنسان إياهما ، فإذا أخطأ ولم يحسن التقدير كان الشر فيما ظنه خيراً ، والخير فيما ظنه شراً فإذاً ما يحتاج إليه الإنسان ، هو المعرفة السليمة والتقدير الحسن ، حتى لا يؤذى الإنسان نفسه من حيث أراد لها الخير (وما أصابك من سيئة فمن نفسك) (٢) .

وفى القرآن موضعان آخران لا يكمل القول بغير الرجوع إلى قول الله تعالى فيهما . أول الموضعين الآية ١٦٨ من سورة الأعراف :

---

(١) سورة البقرة : ٢١٦ . (٢) سورة النساء : ٧٩ .

(وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون) ، وثانى الموضعين الآية الخامسة والثلاثون من سورة الأنبياء (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) . فالخير والشر فى ضوء هذه الأحكام السماوية مبعثهما نفس الإنسان ، ومقدار علمه ، ونصيبه من العقيدة الصالحة ؛ فالسلاح الذى يدفع به الإنسان عن نفسه الأذى ، هو نفس السلاح الذى قد يقتل به الإنسان نفسه أو أحب الناس إليه ، عمداً أو خطأ ، والآلة التى يمهد بها الإنسان الأرض ، هى الآلة التى يمكن أن يقصم بها ظهر الحيوان الذى يعينه ، والطعام الذى يمنحه القوة والصحة ، يمكن أن يكون الطعام الذى يسبب التخمة ، فالمرض فالموت .

فالله يبتلى الإنسان بالسلطان والثروة والنفوذ ، وجمال الوجه ، وحب الناس وكثرة العلم ؛ إذ قد يكون له من وراء كل هذه الخيرات شرور ، وأذى كبير . كما يبتليه بالضعف والمرض والجهل والفقر ويكون له من وراء ذلك خير كبير .

فى الأولى : قد يبطره الجاه والمال ويدخل فى قلبه الغرور ، ويضيع عليه فرصاً ويجلب عليه كراهية الناس ، فيفقد كل ما جمع .

وفى الثانية : قد يدفع شعور الإنسان بجهله إلى طلب العلم ، ويدفعه الفقر إلى التواضع وتآلف الناس ، وضبط النفس واحتمال مشقات الحياة .

وما يحدث للأفراد يحدث للجماعات . فكم من جماعة ابتليت بموقع من الأرض جدب ، فأحسنت رعايته ، واستخرجت منه الكنوز والثروات ، وأخرى أصابت موقعاً غنياً وسخياً ، أفاء عليها فيه الله ، فأورثها الرخاء والترف والرخاوة والاستهانة ، فغلبها على أرضها أقوام آخرون أجلاف لا نصيب لهم من العلم والمدنية . وهذا هو قانون الحضارة الدائم : أمم تعلو بجدها وصبرها ، وتقوى بتماسك أبنائها ، وتحملهم المشاق ، فإذا حققت الثروة والجاه ، غفلت عن سلاحها ، وأهملت

علمها ؛ فإذا هي لقمة سائغة لغيرها ممن هم أقل منها علماً وثروة ، وأكثر منها جلداً وصبراً .

وفى القرآن آيات كثيرة ، تذكر المسلمين بهذا القانون ، وتعرضه فى أكثر من صيغة (أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة) (١) ، (أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثاراً فى الأرض ، فأخذهم الله بذنوبهم ، وما كان لهم من الله من واق) (٢) . (أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثاراً فى الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) (٣) .

وهذا هو القانون الذى يفسر به « توينبى » المؤرخ الإنجليزى التاريخ العام كله ، ويسميه قانون « التحدى » فمن نزل به شر ، سواء كان ضيقاً فى الرزق ، أو فقراً فى الأرض ، أو ابتلاء بجار لا يكف عن العدوان ، حفزه هذا المكروه ، أو ذلك الشر ، إلى تجميع قوته ، واستثارة كامن مواهبه ، ليعلو عليها وينجو منها ، فإذا هو أحسن حالا ، وأقوى مما كان ، وأقدر على الحياة .

ودلالات التاريخ القديم والحديث ، ودلالات حياة الأفراد الكبار والصغار تؤيد هذا القانون القرآنى ، فأهل المناطق الباردة التى لا ينقطع فيها هطول الأمطار ، وإظلام الضباب ، وتنطفئ فيها الشمس ، وتهبط درجة الحرارة إلى ما دون الصفر بكثير ، تطيب فيها الحياة ، ويحلو مذاقها ، وتزدهر فيها الفنون ، وتؤتى ثمارها ، ويضطرد فيها سير العلوم وتزكو آثارها عن بلاد أحسن أرضاً ، وأطيب جواً .

---

(١) سورة فاطر : ٤٤ . (٢) سورة غافر : ٢١ .

(٣) سورة غافر : ٨٢ .

فالإنسان ، بفضل عقيدة القرآن ، ليس عنصراً ضعيفاً لا حول له ولا قوة ، أمام عالم أعمى ، لا سبيل إلى التفاهم معه ، أو تحقيق الأمن فيه ، بل إن الإنسان يملك مصيره ، ويشق فى هذا الكون طريقة ، وبقدر إيمانه يعلو على ما يبدو شراً مستطيراً ، أما هذا العالم ، بشقيه الظاهر والباطن ، فخاضع للإنسان ، إن عرف كيف يهتدى إلى مقاليده ومفاتيحه ، بفضل إيمانه بنفسه وإراداته فى طلب العلم وتحصيله ، فالله تعالى يقول لنا : (وسخر لكم الأنهار)[١] ، (وسخر لكم الشمس[٢] ، والقمر دائبين) ، (وسخر لكم الليل والنهار)[٣] ؛ (الله الذى سخر لكم البحر)[٤] ثم (ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض)[٥] . ليس إذن الكون المادى الذى يحيط بنا عدواً لنا ، وإن أصابنا من بعض ظواهره كوارث ، فحسب الإنسان أن يتأمل ، ويدرس ، ويتعلم ، حتى يمكنه أن يتقى هذه المصائب المدلهمة ، ثم يحولها إلى خير كثير . والعلم يثبت لنا صحة هذا النظر .

وإذا عرف الإنسان صلة الشر والخير بنفسه ، كما عرف صلته بهذا الكون المسخر له ، وأدرك أن عقيدته ، ومقدار إيمانه ، هو الذى يحقق له الخير أو يوقعه فى الشر ، بدت له الحياة جديرة بأن تحيا ، وبدت له صعابها ومشاقها ، خليقة بأن تحتمل لتدرس ، ثم لتتقى ، ثم لتستحيل مصدراً للنعم . وأخيراً بدت له الحياة ذات معنى وأنها ليست عبثاً لا طائل تحته ، وأن معناها هذا خليق بأن ينجينا من شدة الفرح بما تحقق من خير ، ومن شدة الجزع لما يصيبنا من ضر : (لكيلا تأسوا على ما فاتكم ، ولا تفرحوا بما آتاكم) ، فهذه التقلبات امتحان مستمر للإنسان ، ليسبر غور نفسه ، وليقيس قوته وقدرته ، وليستخرج من

---

(١) سورة إبراهيم : ٣٢ .
(٢) سورة إبراهيم : ٣٣ .
(٣) سورة الجاثية : ١٢ .
(٤) سورة لقمان : ٢٠ .
(٥) سورة لقمان : ١٢٠ .

أعماقها مزيداً من خيراتها وفضائلها التى قد يبقى جاهلاً إياها مغضًّا من قدرها ؛ حتى تكشفها له الأحداث ، وتريها إياه المحن .

ولكن هذه الحياة لا تستمد معناها منها نفسها ؛ إذ أنها ليست سوى الطريق إلى حياة أعلى منها شأنًا ، وأكبر منها معنى ، تلك هى الحياة الأخرى ؛ هذه الدار الأخرى عند المسلم استحثاث مستمر دائب لا ينقطع لخطاه نحو الكمال والتسامى ، ولا نهاية لهذا السعى ، ما دامت الحياة متصلة ؛ وما دام كل عمل مهما صغر له جزاؤه فى هذه الدنيا ، وفى الآخرة على السواء :

ولهذا فالدعاء — دعاء المسلمين ، كما علمنا القرآن : (ربنا آتنا فى الدنيا حسنة ، وفى الآخرة حسنة) .

والصلة بين الدنيا والآخرة ، فى الإسلام ، صلة غاية فى اللطف ، ولهذا تخفى على غير المسلمين ، وتخفى أحيانًا على بعض المسلمين ، فإن هؤلاء وأولئك يرون فى القرآن ذمًّا فى الإقبال على الدنيا ، والانصراف إليها : (وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) ، (قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى) ؛ (وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو) فالقرآن لا يزال يذكر المسلمين بأن ما فى الدنيا زائل وفان ، ولا قيمة له لكنها كذلك — إذا قورنت بما فى الآخرة ، وبما عند الله ، وبالجهاد فى سبيل المبادئ التى تجعل حياة الإنسان — أفضل وأنقى وأجمل . ولكن الدنيا فى ذاتها ، ليست مهملة ، ولا منسية عند المسلمين لأن قانون المسلمين (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا) و « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » .

وفى هذين الأثرين تكاد تتساوى الكفتان ، فكأن الدنيا والآخرة ندّان ، وهما ندّان طالما اتصلت أولاهما بأخراهما ، أما إذا كانت الدنيا عالمًا قائمًا بذاته يقف الناس عنده بآمالهم وهمومهم وسعيهم وتفكيرهم ، فهى فى هذه الحال دار لعب ولهو ، وهى متاع الغرور ،

وهى متاع قليل ، بل إنها شر مطلق ، فالحكم على الدنيا ، وخيرها وشرها ، فرع من قانون الخير والشر فى الإسلام ، فما قصد من الدنيا خيرها الزائل من متع البدن ، والثروة والأولاد والأموال ، وحب الشهوات فهى مفضية إلى الجحيم والخسران ، أما إذا كانت الدنيا مقدمة للآخرة فقد أصبحت داراً جديرة بأن يرعاها الإنسان ، ويزيد من جمالها ، ومن أمنها ، وخيرها ، لأنه لن يصيب خيراً فى الآخرة إلا بعمل فى الدنيا ، إذ لايستطيع الإنسان أن يقفز إلى الآخرة من فوق الدنيا فإنها الطريق إليها ، ولا طريق سواها . فالصلة إذن بين الدنيا والآخرة وثيقة إلى أقصى حد ، والمسلمون مطالبون بأن يجعلوا دنياهم على نسق أخراهم . أن يجعلوها دار محبة ، لا جدال فيها يفضى إلى الشحناء ، ولا أحقاد ، ولا تعطيل لمصالح الناس ، ولا أذاهم باللسان أو باليد أو حتى بالخاطرة تمر فى الرأس .

والأمثلة على ما نقول كثيرة ، نجتزئ بأوضحها دلالة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يثاب المرء على اللقمة حتى يرفعها إلى فى امرأته » وقال رسول الله يوماً لبعض أصحابه : « فى وضع أحدكم صدقة » والوضع هو ماء الرجل يقذف به عند المعاشرة الزوجية . فقال أصحاب رسول الله : يا رسول الله ، أيأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ فقال : « نعم أرأيتم إذا وضع فى حرام أيكون عليه وزر ؟ (قالوا : نعم) . قال : كذلك إذا وضعه فى حلال يكون له أجر » .

ومن هذين الأثرين يظهر جلياً أن ما يبدو شديد الصلة بالحياة الدنيا ، من لقمة تؤكل ، ومن لقاء بين الزوجين يتم ، وهو ما يبدو فى الوقت نفسه منقطعاً عن الحياة الأخرى ، التى هى حياة الأرواح التى فرغت من هموم الدنيا ولذائذ البدن — هذا الذى يبدو دنيوياً غير روحى ، وغير أخروى ، هو بميزان الإسلام ، عمل صالح ، فسيكون له جزاء فى الدنيا وفى الآخرة ، إذ أن كل ما يسبب للناس فى الدنيا ،

راحة أو متعة أو نفعاً ، وما ييسر لهم صعباً أو يقرب لهم بعيداً ، أو يوضح لهم غامضاً ، أو ينفى عنهم أسباب الفرقة والشقاق هو عمل أخروى له جزاء فى الدار الآخرة .

فالثواب ليس وقفاً على العبادات بأنواعها ، لأن العبادة فى الإسلام ليست الصيام والقيام والإنفاق والحج ، قال رسول الله يوماً : « إن من الذنوب ذنوباً لا يكفرها الصيام ولا القيام » فقال أصحابه : وما يكفرها يارسول الله : قال : « الهموم فى طلب العيش » .

ومن قبيل هذا : « لمداد تريقه أقلام العلماء خير من دماء الشهداء » .

وفى هذا المعنى ماروى عن رسول الله من أن الناس تحدثوا إليه عن رجل يصوم النهار ويقوم الليل فقال : « ومن يقوم عليه ؟ » أى من يوفر له أسباب العيش ؟ قالوا : أخوه . قال : « أخوه أعبد منه ؟ »

ولقد نهى الرسول صحابته أن يصوموا فلا يفطرون ، أو أن يقوموا الليل كله فلا ينامون ، أو يهجروا الناس ، وقال : « أنا أصوم وأفطر ، وأقوم وأنام وأتزوج النساء » .

وقد قال لنا الله تعالى فى سورة الجمعة : (يأيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله ، وذروا البيع ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله) ، فالتجاور الشديد بين الصلاة والانتشار فى الأرض ، مما يشعر بتكامل العملين وعدم انفصال أحدهما عن الآخر ، وقد قال الله تعالى أيضاً : (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق) ، وهو سؤال يستنكر فيه الله تعالى هذا التحريم لزينة الحياة وطيباتها ، لأن دنيا المسلمين ، هى دنيا الجمال ، والأناقة ، دنيا العاملين الذين يجتمع فى عملهم النشاط ، ولطف المعاملة .

فالحياة الدنيا ، إن كانت استكثاراً للأموال وتفاخراً بالأولاد ،

واستعلاء على الناس ، ونسياناً لما يدعو إليه القرآن فى كل خطوة ، وفى كل حركة ، من إقامة العدل ، وإشاعة الرحمة ، وإذاعة العلم ، وصلة الرحم والأخذ على يد الظالم ؛ فهى الخسران والبوار .

وفى هذا المبدأ الذى يصل الدين بالدنيا ، والأولى بالآخرة ، يصبح الإنسان كلاً لا ينفصل ؛ فليس فى الإسلام روح بلا بدن ، ولا بدن بدون روح . وليس هناك حاجيات للإنسان روحية ، وأخرى مادية . فكل عمل مادى بحت ، كطعام يؤكل أو شراب يشرب ، أو امرأة يتزوجها ، أو بناء يقيمه ، أو تجارة يديرها ، أو مساكن يرضاها كل أولئك له جانبه الروحى ، وهو لا ينسى ، لأن العبادة فى ذاتها شديدة الاتصال بالجانب المادى لحياة الإنسان ؛ فهى لا تصقل روحه ولا تنقى قلبه فقط ، وإنما تقيم حياته اليومية ، على أسس أكثر سلامة وتعينه على أن يربح ، وعلى أن تزداد الحياة ، لطفاً وأناقة وجمالا ، ولهذا جاء فى الأثر : «إن لبدنك عليك حقاً» وجاء فيه : « إن مصلحة الأبدان قبل مصلحة الأديان» ، و« إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه » .

من كل هذا لم يكن ممكناً أن يصيب المجتمع الإسلامى ، ما أصاب غيره من المجتمعات من التصدع بسبب هذا الصراع بين الفرد والجماعة ، فالمذاهب الفردية تعلى من شأن الفرد ، ولا تطيق أن تمس حريته ، أو ينتقص ماله ، وترى الفرد هو الغاية من كل قانون ، وركن الزاوية فى كل نظام ، وتحسب أن تنافس الأفراد الحر الطليق ، هو الذى يؤدى إلى زيادة الثروات ، ونمو الطاقات ، وازدهار الأفكار والابتكار ؛ وأن الأفراد السعداء الأقوياء هم الأفراد الأحرار ، وأن الجماعة السعيدة هى التى تتكون منهم .

أما المذاهب الاجتماعية ، فترى أن الأفراد ، إذا أطلقت لحريتهم العنان ، فقد استحالت حياتهم إلى فناء ، إذ أن الفرد يجب أن يستزيد

من المال ، بأى سبيل ، وأن يحصل على القوة بكل وسيلة ، وعندها سيداس الفقراء والضعفاء بالأقدام : ومن هنا لن تقوم فى المجتمع سعادة ، بغير نظام يقدم مصلحة المجموع على الفرد ، ويحدد الحريات ، ويوقفها إذا اقتضت المصلحة ، ويوجه الثروات ويصادرها ، إذا لم تكن ثمة وسيلة غير المصادرة للإصلاح .. أما الإسلام ، فقد أعلى قدر الإنسان ؛ وحمى شخصه ؛ وماله ، ومسكنه ورأيه : من عدوان العادين ، ولكنه أخرج الإنسان منذ مولده اجتماعياً يحب الجماعة ولايراها عدواً له ، فقد قال رسول الله : « يد الله مع الجماعة ، والشيطان مع الفذ » ، وقد قال العباس عم الرسول للرسول عليه الصلاة والسلام : لو نقيم لك عرشاً ، فإن الناس قد آذوك ، فقال : « والله لا أزال بين ظهرانيهم ينازعوننى ردائى ، ويصيبنى غبارهم حتى يريحنى الله منهم » .

فالرسول ، وللمسلمين قدوة حسنة فيه ، كان يرى أن مكانه هو بين الناس ، لا يبتعد عنهم ولا يقوم بينه وبينهم حاجب يحجبه عنهم ، فعلموا أن المسلمين يجب أن يعيشوا معاً يتقاسمون السراء والضراء ، وقد حفظوا عن قرآنهم : (إنما المؤمنون إخوة) ، وعلموا من الرسول أنه لايكمل إيمان أحدهم ، حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وأن مثل المسلمين فى توادهم وتراحمم ، كالجسد إذا اشتكى عضو منه ، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى . وبفضل هذه الروح الجماعية ، عند أفراد المسلمين كانت الجماعة محببة إليهم ، ليست عدواً لهم ، ولا شيئاً منفصلا عنهم ، كما هى مثلا فى المذاهب الشمولية أو الكلية فى أوربا الحديثة ، كالفاشستية والنازية ، فقد قال « ألفرد روكو » وزير العدل فى حكومة موسولينى : « إن الجماعة فى المذهب الفاشستى ليست مجموعة الأفراد ، وإنما هى كائن مستقل عنهم ، منفصل عن وجودهم ، له ذمة خاصة به تتراكم فيه وتجتمع حصيلة التراث السابق على مولد هؤلاء الأفراد ، والذى يستمر بعدهم »

أما الجماعة فى الإسلام ، فهى المصلحة العليا للأفراد ، ولكن يحكمها الدين الإسلامى . أى عقيدة الإسلام ، كما تحكم كل فرد منهم ، فليس للجماعة حق ليس للأفراد ؛ فهى لا تستبيح حرمات الناس ، وهى لا تقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ؛ وهى لا تمثل بالأحياء ولا بالموتى ، لأن الحاكم المسلم كالفرد كلاهما خاضع لحكم الإسلام ، فإن خرج عليه جاز محاكمة الحاكم ؛ وعزله ، بل الحكم عليه بالموت . فدولة المسلمين لا يحق لها كغيرها من الدول أن تطارد الأفراد ، وتتجسس عليهم ، بل إن المواثيق والعهود ؛ تربطها كما تربط أى فرد ، فقد قيل يومًا لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن جماعة من غير المسلمين ارتبطت معهم بميثاق تتهيأ لنقض العهد والانقضاض على المسلمين ، فلم يأذن للمسلمين أن يبادئوها بالخيانة أو يسبقوها إلى الغدر ، وقال : أوفوا لهم واستعدوا » ومن هنا لم يقم بين المسلمين فى عهود دينهم المشرقة ، ما قام فى ظل الدول الأخرى من صراع دام بين الأفراد والدولة ، أو بين الحاكم والمحكوم ، وهيأتهم العبادات الجماعية من صلاة الجماعة والصلاة الجامعة يوم الجمعة ومؤتمر المسلمين الشامل فى يوم الحج ، أن يتشربوا روح الجماعة ، وأن يتعلقوا بها ، وأن يتحاشوا ما استطاعوا أن يخرجوا عن سبيل المسلمين متذكرين قول الله تعالى : (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ، ونصله جهنم وساءت مصيرا) .

وبهذا كله تصبح دنيا المسلمين دنيا سلام حقًّا ، سلام يشمل الفرد والجماعة ، ويشمل الحاكم والمحكوم ، ويسود علاقة المؤمن بنفسه ، وعلاقته بربه ، وعلاقته بالكون الفسيح الذى يزداد له كل يوم فهمًا ، وعليه سلطانًا ، فيزداد معرفة ، وعلماً وطمأنينة وسلامًا .